المحور الأول: العلاقات السياسية الجزائرية المغربية:

برزت الجزائر في الفترة الحديثة كقوة سياسية وعسكرية لها مكانتها في البحر الابيض المتوسط، لذا ربطت علاقات في مختلف المستويات مع عدة دول متوسطية وغيرها، ومنها دول الجوار او دول بلاد المغرب وأيضا مع المشرق، فيما اتسمت تلك العلاقات؟ وما مظاهرها؟.

وننطلق في هذا الباب مع المغرب الأقصى، الذي شهد قيام عدة اسر فيه توازت مع الدولة العثمانية بالجزائر أولها الوطاسية ثم السعدية وأخير العلوية الحالية، وسنقف على السمات العامة التي تميزت بها العلاقات السياسية بين البلدين ما بين ق 16 إلى ق19م.

المحاضرة الأولى: مع الأسرة الوطاسية

الوطاسيون: هم فرع من بني مرين ينتمون إلى قبيلة زناتة الأمازيغية، برزوا في العهد المريني بالمغرب الأقصى، وشغلوا في البداية بالجيش والإدارة ثم الوزارة وتحولوا للوصاية في فترة أخر حكم بني مرين في عهد عبد الحق (1420-1458م)، ليتحولوا بعدها في سنة 1471م إلى تصدر الحكم بعد القضاء على المريني من طرف سكان فاس في 1465م لحادثة يطول يذكرها هنا، فاستبد محمد الشيخ الوطاسي بالحكم وأسس الدولة الوطاسية، واعتمد في بناء دولته على أهل فاس وما تمده القبائل من رجال مقابل إعفائها من الضرائب ومنحها الامتيازات، وأيضا ولاءات بعض المناطق.

إلا أن الفترة كانت حرجة بظهور الاحتلال الاسباني والبرتغالي على السواحل المتوسطية والأطلسية على المغرب، والتدخل العثماني بالجزائر ومد نفوذه إلى غاية تلمسان التي تجاور الوطاسيين، وبدون العودة إلى كيفية دخول الجزائر تحت راية العثمانيين لأنها مبسوطة في المراجع، نتساءل عن طبيعة العلاقة بين هذه الأسرة وحكام الجزائر، في ظل ظرف دولي حرج سمته الاحتلال والتهديد والهجرة والإبادة، فكيف واجه الطرفين هذه الأوضاع؟.

فبظهور العثمانيين على مسرح المغرب الأوسط بداية من القرن 16م كانت الدولة الوطاسية على مشارف الهلاك، مع درجة متقدمة من الضعف لأنها ورثت حالة متدهورة على كل الأصعدة بعد المرينيين، ولهذا فالوطاسيون لم يشهروا العداء للعثمانيين رغم استنجاد ملوك

بني زيان بهم، فتجنبوا فتح باب جديد من العداء، أمام تصاعد المد السعدي من الجنوب والتحرش الأيبيري من الشمال.

لذا عمل عروج بعد دخول تلمسان إلى إيجاد حلف دفاعي هجومي مشترك مع سلطان فاس محمد البرتغالي الوطاسي ضد العدو الأيبيري المشترك، مع إبداء عروج استعداده لتقديم كل العون ضد مناوئيه بالمغرب، فوافق محمد البرتغالي بهذا المسعى ولكنه لم يصل إلى حد التجسيد، بدليل عند مهاجمة القوة الاسبانية لتلمسان لم ينجد الوطاسي عروج الذي استشهد بالوادي المالح في ماي 1518م.

وفي عهد البيلرباي خير الدين زاد التعاون بين البلدين بتقديم الدعم، فقد ترددت السفن الجزائرية على الموانئ المغربية كالعرائش في 1523م لقضاء فصل الشتاء بها مع التزود بما تحتاجه، ولذلك فالعلاقات أصبحت حسنة بعد فتورها على اثر مقتل عروج، وبعد تحرير حصن الباستيون في 1529م دعا خير الدين كل من أمير بادس وتونس وفاس للقيام بحملة مشتركة معه لطرد الأسبان من وهران، غير أن المشروع لم ير النور لأن الوطاسيين كانوا في صراع مع السعديين الذين استلوا على مراكش منذ 1524م.

ورغم ذلك فالعلاقات لم تنقطع فأحمد الوطاسي وأبا حسون أبديا رغبة في التعاون فتطورت العلاقات بين البلدين، فبقيت الموانئ الشمالية للمغرب تزويد بيلرباي خير الدين بما يحتاجه، كإرسال الوطاسي مجموعة من السفن مملؤة بالحبوب لمواجهة مجاعة سنة 1531م بالجزائر، كما أرسل حسن أغا بعد حملة شارل الخامس في 1541م مبعوثا إلى بادس لشراء السفن، وزودت موانئ تطوان السفن الجزائرية بما تحتاجه، لذا فالعلاقات في هذه الفترة كانت تتسم بالتقارب والتعاون بسبب العدو المشترك واستمرت الحالة على ذلك إلى غاية بيلرباي حسن بن خير الدين (1544-1551م).

كما انتقل عدد كبير من العثمانيين للعمل في البلاط الوطاسي والجيش، خصوصا بعد إبرام الإمبراطورية العثمانية صلحا مع النمسا واسبانيا في 1547معرف بمعاهدة أدرنا، أدت إلى تعطيل النشاط الحربي ضدها، فكان متنفس البحارة العثمانيين بغرب المتوسط لتوجه نحو المغرب الأقصى وتقديم خدماتهم عليهم، وتواتروا ونزلوا عليها بالآلاف، ودخلوا بعدة تخصصات، فشكلوا فرقا في الجيش السعدي فيما بعد بمختلف فرقه.

وكانت أهم التطورات في العلاقات بين الطرفين عند انهزام وأسر أحمد الوطاسي أمام محمد الشيخ المهدي السعدي في سبتمبر 1545م، والتجاء الأسرة الوطاسية للاستنجاد بالسلطان العثماني سليمان القانوني لتطلب منه تقديم المساعدة والتدخل لفك الأسير، وتعلن خضوعها وولاءها للسلطان العثماني، فصكوا العملة باسمه والدعوة له على خطبة المنابر، فأرسل هذا الأخير وفدا إلى مراكش حمل رسالة بلهجة آمرة لمحمد الشيخ السعدي، يأمره بإطلاق سراح الأسير وتعويض عنه مع صك العملة وإقامة الخطبة باسمه، لكن محمد السعدي رد الوفد خالي الوفاض، فقام بتكثيف العمل للقضاء على الوطاسيين والتحضر للعثمانيين.

وبعدم تحقيق رجاء الأسرة الوطاسية التي رضخت لشروط محمد الشيخ بالتنازل على مكناسة الزيتون مقابل إطلاق سراح أحمد الوطاسي في 1547م، فترت العلاقات بين الطرفين فإن أحمد الوطاسي لم يطلب دعم الجزائر حتى أخاه أبا حسون بعد الإطاحة الثانية بأحمد في 1549م، فإنه توجه نحو اسبانيا ثم البرتغال بدل طلب النجدة من الجزائر، التي في نهاية سيأتي منها بالدعم فيما بعد، بسبب سياسة محمد الشيخ العدائية ضد العثمانيين، وقيامه بحملة على تلمسان في 1550م، فتم تنصيب أبو حسون في جانفي 1554م تحت قيادة صالح رايس، وطرد محمد الشيخ من فاس الذي أعاد عليها الكرة في سبتمبر 1554م بعد خروج الجيش الجزائري منها، ليقضي بذلك على الأسرة الوطاسية، لتدخل الجزائر في علاقاتها مع الأسرة السعدية بالمغرب الأقصى.

فمن خلال هذا العرض الوجيز يمكن استنتاج أن العلاقات الجزائرية الوطاسية اتسمت بنوع من عدم التدخل في الأمور الداخلية للبلدين فالوطاسيون لم يعينوا الزيانيين عندما لجأوا إليهم، والعثمانيون لم يتدخلوا فيها إلا بطلبهم، وهنا من يبرر ذلك بانشغال الجزائر بالحرب على اسبانيا جعلها لا تفكر في التدخل في المغرب الأقصى، مع العلم أن الوطاسيين قد أعلنوا الدخول تحت راية العثمانيين طواعية في 1545م نتيجة التهديد السعدي لهم.

رغم تدخل الجزائر في المغرب الأقصى في عهد صالح رايس سنة 1554م، فانه لم يسعى إلى إلحاق فاس بالدولة العثمانية كما فعل عروج أو من جاء بعده مع مدن البلاد المغرب كتلمسان وتونس.

اتسمت بنوع من التعاون بين الطرفين بالتموين وفتح الموانئ وتقديم خدمات الجند والتقنيات ضد عدو مشترك مثلته اسبانيا والبرتغال، رغم فتورها أحيانا فلم تصل لحد الصدام كخلفهم.

المحاضرة الثانية: مع الأسرة السعدية:

السعديون: هم أسرة عربية الأصل انتقل أوئلهم من ينبع النخل بالحجاز إلى درعة جنوب المغرب الأقصى في ق 6هـ/12م وهم من الأشراف، ويسمون بالزيدانيين نسبة إلى جدهم زيدان بن أحمد أول من دخل منهم المغرب، إلا أن اسم السعديين هو الذي طغى استعماله.

سبب ظهورهم: يعود إلى الفتن التي عصفت بالمغرب في بداية ق 16م، مع ضعف الوطاسيين وتشتت أمرهم، وصاحب ذلك استفحال الغزو البرتغالي والاسباني على السواحل المتوسطية والأطلسية.

لذا قامت دولتهم على أساس جهاد المحتل المغتصب للأراضي، ومن خلال ذلك تحصلوا على البيعة والدعم الروحي والمادي ويضاف إليه نسبهم الشريف لآل البيت، وأول من قاد الجهاد منهم محمد بن عبد الرحمن الملقب بالقائم بأمر الله وهو عميد الأسرة السعدية، ضد البرتغال في المناطق الجنوبية والوسطى، وبعد وفاته في 1512م قاد الحركة الجهاد ابناه أحمد الأعرج ولي عهده، الذي دخل مراكش سنة 1524م، وأخيه محمد الشيخ المهدي الذي افتك أغادير من يد البرتغال سنة 1541م، فتخلوا له عن أسفي وأزمور، فتوسعت دولتهم على الجنوب والوسط المغربي، مما جعلهم يدخلون في صدام مع الوطاسيين، ففي ظل هذه المعطيات كيف كانت العلاقات الجزائري المغربية في هذه المرحلة الحرجة من التاريخ؟ وفي ظل تحول الحكم من يد الوطاسيين للسعديين؟.

ونتيجة احتدام العلاقة بين الوطاسيين والسعديين أدت لعدة مواجهات دموية بين الطرفين لم تتدخل فيها الجزائر إلا في مرحلتها الأخيرة على اثر سقوط الوطاسيين، فنجد أن السعديين أطاحوا بهم في عدة مواقع كمعركة انماي 1528م، مشرع بوعقبة 1536م، معركة واد درنة في 1545م، التي تم فيها إلقاء القبض على السلطان أحمد الوطاسي مع ابنه كأسرى لدى محمد الشيخ السعدي، الذي جعل فداءه منحه مدينة مكناسة.

وفي ظل هذه الظروف توجه الوطاسيون بأنظارهم للدولة العثمانية طلبا لمساعدتها في مواجهة خطر السعديين، ووصلوا لحد وضع أنفسهم كرعايا للسلطان العثماني، مما جعله يوجه بعثة نحو محمد الشيخ السعدي بمراكش باستعمال لهجة آمرة كما قلنا سابقا، جعله يرفض الوساطة العثمانية ويرجعها خالية والوفاض، وهذه أول بادرة لتوتر العلاقات بين الجزائر العثمانية والدولة السعدية الناشئة التي تتصعد فيما بعد، الأمر الذي جعل محمد

الشيخ السعدي يسرع في القضاء على الدولة الوطاسية التي أطاح بها في 1549م وفي 1554م حيث انهي وجودها، ليوجه اهتمامه إلى الجزائر.

بعدما قضى السلطان محمد الشيخ السعدي على الدولة الوطاسية انشغل بالجزائر واقرب منطقة منه هي تلمسان التي ترجع بعض المراجع أن الحملة التي وجهها محمد الشيخ السعدي إليها بقيادة أبنائه الحران وعبد القادر، كانت بسبب طلب أعيان وعلماء مدينة تلمسان لتخليصهم من الفوضى السياسية التي كانت ضاربة بها بسبب تناحر البيت الزياني بسيوف اسبانية تارة وعثمانية في أخرى، ولكن هناك من يذهب إلى أن هذه الحملة داخلة في إطار مشروع كبير لمحمد الشيخ السعدي الذي كان يرى في نفسه أحقية الخلافة بدل العثمانيين، لذا نجده يضرب موعد للسلطان العثماني عندما وجه له وفد ثاني لتهنئة على توليه سده الحكم، على انه سيلتقي به في مصر، في حين تيار ثالث يقول أن هذه الحملة كانت بسبب اتفاق سري بين الأسبان والسعديين في إزاحة العثمانيين من الجزائر، ولكن هذا الاحتمال الأخير ضعيف لعدم وجود أدلة قوية تدعمه من خلال سير الأحداث السياسية والعسكرية في المنطقة.

لتدخل العلاقات الجزائرية المغربية مرحلة جديدة تحت راية السعديين، فبعد استكمال السلطان محمد الشيخ السعدي وحدة المغرب تحت سلطته، ما عدا سبتة وطنجة، مازغان بيد البرتغال، ومليلية بيد الأسبان، وبعض الجيوب بالمنطقة الشرقية كغرسيف ووجدة تحت راية العثمانيين.

كما تزامن مع هذه الفترة التحاق عدد من العثمانيين كجند بالجيش المغربي من حملة بنادق وحرس للسلطان نفسه، حيث انتقلت قرابة ألف عثماني إليهم في 1549م للعمل في صفوف الجيش البري والبحري ومصانع الأسلحة والسفن، كما قام محمد الشيخ بتقديم طلب للعثمانيين على توظيف آخرين، وممن قدم خدماته درغوث رايس، وكما قلنا سابقا فهو أثر لمعاهدة أدرنا التي إقامتها الدولة العثمانية مع اسبانيا وأدت لوقف القتال بينهما في 1547م، مما جعل البرتغال والأسبان يدقون ناقوس الخطر لهذا التطور فقاموا بتعزيز الحصون، ولكن ما فتئت أن تبددت مخاوفهم بسبب تعكر العلاقات الجزائرية السعدية، ففي صيف 1550م يقدم محمد الشيخ على شن حملة عسكرية على تلمسان.

وكانت هذه الحملة بقيادة أبنائه حيث منيت بهزيمة نكراء راح ضحيتها أبناؤه قادة الجيش وعزم بيلرباي حسن بن خير الدين على اجتياح المغرب، ولكن السلطان العثماني أعفاه من مهامه وأقام صالح رايس(1552-1556م) الذي كلفه بإقامة الصلح مع السعديين في جانفي 1552م، وكان في بنود هذا الاتفاق هو وضع واد ملوية كخط فاصل بين الدولتين، كما يلتزم الطرفين بعدم الاعتداء خصوصا من طرف القبائل.

ولكن رغم محاولة صالح رايس في التقارب لتحسين العلاقات والتوصل إلى اتفاق معهم، لكنه لم يدم طويلا وتم اختراقه بهجوم قبائل مغربية على حدود تلمسان، فاتخذت كذريعة لإعلان الحرب على فاس، رغم محاولات التبرير التي قام بها السلطان محمد الشيخ، وخصوصا أن في هذه الفترة أبا حسون الوطاسي في مدينة الجزائر بفتل حبائله لحكامها لإعادته لحكم فاس، فكان له ذلك مقابل التكفل بأعباء ومصاريف الحرب. فناصرت الجزائر أبا حسون الوطاسي، وقامت بإرجاعه في جانفي 1554م، ولكن بعد مدة قصيرة من خروج محمد الشيخ من فاس عاود الدخول إليها بمجرد خروج الجيش الجزائري في سبتمبر 1554م وتم القضاء النهائي على الأسرة الوطاسية.

لترسل الدولة العثمانية وفدا لتهنئة السلطان السعدي إلا أنه زجر الوفد وضرب للسلطان العثماني موعدا لن يخلفه بمصر ونعته بسلطان الحواتة فكانت نهايته على ذلك، بأن تم تجهيز خطة من بيلرباي حسن بن خير الدين وإرسال صالح كاهية مع نخبة قاموا بتمثيل الخطة المتفق عليها، انتهت باجتزاز رأس السلطان محمد الشيخ السعدي في أكتوبر 1557م، لتصل العلاقات إلى تأزمها، مما جعل السلطان عبد الله الغالب السعدي يعمل على الثأر من العثمانيين قاتلي والده، الذين اخذوا رأس والده للجزائر ومنها إلى اسطنبول حيث علق إلى غاية توجه ابنه عبد المالك وإعادته إلى جسده الذي دفن بمراكش بدون رأس.

فقد قام السلطان الغالب السعدي (1557-1574م) بعدة محاولات أعيزت إلى التفاهم السعدي الاسباني للتخلص من العثمانيين بالجزائر فنفذ حملة في 1557م وأخرى في 1558م وثالثة في 1560م على اثر قيام اسبانيا بحملة على تونس التي انهزمت فيها فما كان على عبد الله الغالب سوى الانسحاب من تلمسان، كما سعى لتخلص من التهديد الجزائري بالأراضي المغربية، بمنحه حجر بادس التي سيطر عليها الجزائريون إلى الأسبان، ونجح في ذلك سنة 1564م وهذا قصد التخلص من الوجود العثماني بالأراضي المغربية

ففضل إعطاءها لعدو الدين على بقائها في يد صاحب الدين، فلقي معارضة من علماء فاس على ذلك.

وفي عهد البيلرباي العلج علي الذي تدخل مباشرة في المغرب وحاول إخضاعها، فقد ناصر عبد الملك وأخيه أحمد، وإعادة عبد الملك لسدة الحكم بدل ابن أخيه محمد المتوكل في 1576م، بقادة رمضان باشا (1549–1577م) ولكن بسبب موقف عبد المالك المتذبذب، وكذا أخيه من بعده في سنة 1578م الذي انتصر في معركة واد المخازن، التي قدمت فيها البحرية الجزائرية المساعدة لعبد المالك، ورغم عدم مشاركتها فعلا فإنها تمكنت من غنم عدة قطع برتغالية التي حاولت العودة، جعل العلج علي يحاول دخول المغرب كسنة 1582م، إلا أن الهدايا التي قدمها السلطان أحمد المنصور جعلت الخليفة العثماني يوجه أوامره للعلج علي بالعودة نحو المشرق، وإنهاء مهام جعفر باشا (1580–1582م).

وعلى العموم فإن العلاقات الجزائرية السعدية تميزت بنوع من الصدام الدائم بين الطرفين في محاولة رد التوسع السعدي على الغرب الجزائري، وهناك من يذهب أن الدولة العثمانية لم تقم بحملة على المغرب لضمها إليها لظهور الأشراف فيها، بدليل أن العلج على أثناء حملته عليها عندما انتهى الأمر للخليفة العثماني رده عن ذلك، كما أنها سعت في بقاء الأشراف.

فقد أعادت الأخوين عبد المالك وأحمد المنصور لسدة الحكم، واتسمت العلاقات في عهدهما بالسلم الحذر باعتبار وجودهما كان بفعل العثمانيين، وفي عهد السلطان أحمد المنصور 1578م–1603م فقد عمل على التخلص من السيطرة والهيمنة العثمانية بحنكته، بإرسال الهدايا والوفود إلى الجزائر والدولة العثمانية، فكانت العلاقات في عهده سلام حذر. رغم وجود عدة فرص للتدخل في المغرب غير أن الدولة العثمانية لم تقم بضمها، خصوصا بعد وفاة السلطان المنصور تدخل البلاد في فوضى سياسية عارمة، انتهت بانقراض الدولة السعدية على يد العلويين، لتدخل العلاقات حلقة جدية بين البلدين.

المحاضرة الثالثة: مع الأسرة العلوية:

العلويون: أصلهم من الحجاز من ينبع من قرية بني ابراهيم وفدوا في ق 7هـ/13م ونزلوا بتافيلالت بسجلماسة، ينسبون إلى حسن القادم أول من دخل من الرفاء إلى سجلماسة كما سمي بالحسن الداخل، وعميد هذه الأسرة الشريف بن علي، برز أواخر الدولة السعدية بايعته سجلماسة سنة 1631م-1635م ليتنازل بعدها لابنه محمد 1635-1664م الذي دخل في عراك مع بقايا السعديين.

وساعد نسبهم الشريف في التفاف الناس حولهم قصد طرد الأجنبي الذي تحصن من جديد بالمنطقة، فقضوا على السملالين بالجنوب والدلائيين بالشمال.

وشهدت العلاقات في بداية ظهور العلويين تصاعدا في الأعمال اتجاه الجزائر، وهذا نتيجة ان الجزائر في عهد الباشوات شهدت في كثير من الأحيان ثورات للأهالي والجند بسبب سياسية هؤلاء الباشوات المبنية على المصلحة الخاصة، فاستغل هذا محمد الشريف العلوي أثناء توسعه في المغرب الشرقي، قام بحملة عدائية على بني سناسن وهدد تلمسان في 1654م وقضى الشتاء بوجدة لينتقل بعدها نحو عين ماضي والاغواط، فجهز يوسف باشا ، حملة ولكنه تمكن من الإفلات منها، فقام الباشا بإرسال وفد يتكون من اثنين من أعيان الجزائر وعلمائها مع كبيرين من رجال الديوان، حملوا رسالة كتبها أحد أعضاء الوفد الكاتب المحجوب الحضري لسجلماسة لعقد اتفاق وتم فيه ترسيم الحدود الغربية الشمالية مع هذه الأسرة الناشئة، وتعهد محمد العلوي بعدم الاعتداء على ما وراء واد تافنة.

ليثبت هذا الاتفاق أخوه الرشيد (1664-1672م) مع الجزائر سنة 1665م، حتى يتمكن من تهدئة البلاد ففي 1667م دخل فاس، وكسر شوكة الدلائيين في 1668م ووجه علماءها نحو تلمسان، وهناك من يذهب لتبرير هذا الفعل من أجل إثارة الفتن فيها، واستدلوا بالفتنة التي كانت سنة 1669م، حتى أن الأغا علي (1664-1671م) لم يتمكن من قمعها، غير أن الرشيد العلوي لم يتدخل في تلمسان، لانشغاله بإخماد الثورات واستكمال سطوته على المغرب.

في حين خليفته السلطان إسماعيل (1672-1727م) شن حربا شعواء على الغرب الجزائري فكلما سنحت له الفرصة إلا واستغلها، ولكن كل حملاته تكسرت أمام دايات الجزائر وقوة الانكشارية، مستغلا في ذلك الفوضى السياسية التي أعقبت نهاية الاغاوات وبداية الدايات

وكذا الفتن الداخلية للجزائر، ففي سنة 1671م قام بحملة على الغرب الجزائري ولكنه تصدت له القوة العثمانية بالجزائر مستعملة المدفعية، فأرجعته إلى حدود المغرب المتفق عليها مع أخويه، مما جعله يعترف بالمعاهدة السابقة مع الحاج محمد باشا (1671-1682).

كما عرف المغرب الأقصى في عهد هذا السلطان استقرارا سياسيا دام لمدة خمسين سنة تحت حكمه، لذا كان يعمد إلى استغلال كل فرصة تتاح له في غزو الجزائر، كحملة في عهد الحاج شعبان باشا (1688-1695م) التي تصدى لها الجند الانكشاري كالعادة، بدحره كل مرة إلى ما وراء واد ملوية، وعقدت معاهدة وجدة التي اعترف بها السلطان إسماعيل كحد فاصل بين البلدين، كما اتفق السلطان المغربي مع باي تونس مراد الثالث بإقامة حملة مشتركة على شرق وغرب الجزائر، لكن الداي مصطفى باشا(1700-17056م) تصدى لهما، ودحرهما إلى حدودهما، وكانت ملاقاة الجيش الجزائري للمغربي على واد جديوية أحد فروع واد الشلف، أين هزم الجيش المغربي وتقهقر أمام ضربات الانكشارية إلى ما وراء واد ملوية، وفي 1703م أعاد الكرة وتم دحره أيضا من جديد عند ارزيو إلى ما وراء واد ملوية، لتصل درجة العداء أن السلطان المغربي فضل مصاهرة البلاط الفرنسي من أجل القضاء على الجزائر.

لتدخل العلاقات بين البلدين بعد هذا العاهل بنوع من الهدوء والسلام نتيجة ما شهده المغرب من حروب يشيب لها الولدان كما قال بعض المؤرخون، ليستقر الوضع في عهد السلطان محمد بن عبد الله (1757-1790) وابنه سليمان(1797-1822م)، وسعيهما في محاولة مساعدة الدولة العثمانية، كما شهد عصرهما حركة إصلاحية ضد الطرقية، ولكن لم يكتب لها النجاح.

وفي ق19م شهد الغرب الجزائري ثورات قادها شيوخ الطرقية، التي ترتبط بأصولها بالمغرب الأقصى، كالقادرية التي هددت بايلك الغرب ليصل لهيبها إلى بايلك التيطري، مما جعل باي الغرب يكتب للسلطان سليمان العلوي بأن يأمر شيخ الطريقة العربي الدقاوي بوقف هذه الثورة التي باركها، وبحضور هذا الأخير ومشاهدة الأمر عن كثب تبرأ الشيخ من تلميذه، وما فتئت تنتهي حتى لهبت نار التيجانية التي ولدت بالمغرب الأقصى، وكانت وبالا في نهاية الدولة العثمانية بالجزائر، وعاملا في إضعاف سلطة البايلك بالغرب.

وبذلك فالعلاقات الجزائرية بالأسرة العلوية اتسمت في بداية ظهور هذه الأسرة بالعداء خصوصا في عهد السلطان إسماعيل لتجنح نحو السلم والهدوء على خلفه، لتصل لحد التعاون والدعم ففي عهد محمد بن عبد الله الذي قدم العون للدولة العثمانية بحد ذاتها في حروبها الأوروبية، في سنة 1795م سلم الجزائريون مدينة وجدة للمغرب في عهد الداي حسن باشا (1791-1798م)، وما قام به السلطان سليمان على اثر الطلب الذي وجهه إليه الداي الحاج علي باشا(1802-1815م) عن طريق ابن العنابي لطلب الدعم في تجديد جيشه وسفنه البحرية فأعطاه ثلاثة مراكب مع دعمه بمقدار من المال.

فمن خلال هذا العرض الوجيز فإن العلاقات بين البلدين اتسمت بين العداء والسلم والاتفاق حسب ما تستدعيه مصلحة كل طرف.

المحور الثاني: العلاقات السياسية الجزائرية التونسية (1519-1830م).

مقدمة:

بعد تخليص تونس من الأسبان عمد سنان باشا إلى تهديم التحصينات الاسبانية، كما قام بتنظيم إدارة تونس وحكومتها، مع قوة عثمانية مقدرة بأربعة ألاف جندي، مقسمة على أربعين فرقة على رأس كل منها داي، وترأس حكم تونس شخص عرف باسم الباشا تابع إلى بيلرباي الجزائر، فكان أول حاكم فيها حيدر باشا عامل القيروان، وأقام الديوان وعين رمضان باي كقائد لجباية الضرائب، وحدد الرتب والرواتب وغيرها من الشؤون الإدارية، وأعطى التسيير العام للباشا وحده، الذي استبد بالحكم، مما جعل تونس تدخل في فتنة سياسية في 1591م، حيث انقلب الجند على ضباطهم، ونصبوا دايا على الحكم، فأصبح الآمر الناهي فيها من جديد، لتنتهي تلك المعانات بتحول السلطة من يد الداي إلي يد الباي وتمكن البايات من الهيمنة على الحكم من ق17حتى 19م، وتجلي في أسرتين المرادية والحسينية.

المحاضرة الرابعة: مع الأسرة المرادية (1613-1702م)

الأسرة المرادية: أسسها مراد الأول من أصل كورسيكي، وقع في قبضة غزاة البحر، انتهى أمره إلى الباي رمضان الذي اسلم على يديه، وتربي في بيته وترعرع فيها، واظهر مراد نجابة وفطنة مع حسن تصرف جعلت يوسف داي (1610-1637م) يختاره كباي بعد رمضان باي (1593-1621م)، فعمل على تحويل السلطة من الدايات إلى البايات، التي حققها ابنه حمودة باشا فيما بعد، وبذلك يصبح هذا المنصب متوارث في هذا البيت إلى غاية 1702م.

أما فيما يخص العلاقات الجزائرية التونسية خلال هذه الأسرة كان بتدخل الجزائر من اجل فك النزاع الذي احتدم بين أفراد البيت المرادي الذي اخذ بتونس نحو الهاوية، وقد استفادت الجزائر من ذلك أولا بالحصول على الأموال وثانيا إقرار تواجدها ونفوذها بتونس، ما جعل البايات يعملون على تخليص رقابهم من قبضة الجزائر كلما سنحت لهم الفرصة، وهو الأمر الذي سعت الجزائر على تفاديه بتقريب المناوئين للبايات أو الحكام بتونس، وهذا ما يظهر من خلال هذا العرض التاريخي الوجيز.

طبيعة العلاقات: تنطلق العلاقات بين البلدين أثناء رسم الحدود بينهما سنة 1614م، نتيجة اشتباك القبائل الحدودية فيما بينها، أدت إلى نفرة بين الايالتبن كادت أن تصل لحد الصدام، وأقرت الاتفاقية أن مجرى واد الصراط الحد الفاصل بينهما، لتجنح العلاقات لنوع من السلم.

وبتولي مراد باي (1613-1631م) الجباية بتونس في عهد الداي يوسف، فقد أظهر مقدرة وكفاءة مع حنكة، خصوصا عند تأزم العلاقات الجزائرية التونسية في 1628م، ووصلت لحد المواجهة المسلحة، بسبب دخول قبائل تونسية للأراضي الجزائرية تهربا من الضرائب، مما جعل الحكومة التونسية تبني نقطة عسكرية بقلعة النوبة عند مجرى واد السراط، فرأت فيه الجزائر تهديدا لها، مما جعلتها توجه إنذار لتونس وتطالبها بتهديمه، ولكن بعد تماطلهم دخلوا في مواجهة عسكرية كانت في البداية على الجزائريين إلا أن انقلاب بعض القبائل التونسية كبني سعيد لصف الجزائر قلب الكفة لصالحها في معركة سطارة يوم 17 ماي 1628م، مما جعل تونسيون يطلبون الصلح.

وقد سعى مراد باي جاهدا على حل هذه الأزمة وبسرعة باقتراح تفاهم مع الجزائر بدفع تكاليف الحرب لوقف النزاع بدل إطالته، بإيفاد وفد ضم الشيخ مصطفى والشيخ إبراهيم الغرياني وفاوضا على ضرورة بقاء واد مجرى واد السراط كحد فاصل بين الايالتين، مع تهديم قلعة النوبة المسببة للحرب وأن يضل رسم الحدود بين البلدين من ناحية القبلة على ما كان عليه من قبل من "واد ملاق" إلى النقطة المعروفة بـ"الأحيرش" نحو "قلوب الثيران" ومنها "لجبل الحفا" نحو البحر والنقطة الرابعة المتعلقة برعايا الايالتين، فإن أي قبيلة تنزح لأي منهما فخراجها لها، بدون أن تتم المطالبة به الايالة القديمة.

إلا أن الحضور الجزائر كان قويا في تونس في عهد حفدة هذا الأخير فبعده تولى ابنه محمد المعروف بحمودة باشا (1631-1666م) الذي تنازل عن البايوية لابنه مراد الثاني (1663-1675م)، هذا الأخير الذي تقاسم أبناؤه من بعده هذا المنصب فيما بينهم وهم محمد وعلي ورمضان فكانت الفترة ما بين 1675-1686م مرحلة فتن بتونس استغلتها الجزائر كطرف مصلح بينهم سنة 1680م، وقد استجاب كل من محمد وعلى لهذه الوساطة بتقسيم تونس بينهما شمالا لعلي باي وعاصمته تونس وجنوبا لمحمد باي وعاصمته القيروان، في حين تبقى القيادة العليا لتونس بيد علي باي، وبعقد هذا الصلح عاد الجيش للجزائر.

ولكن هذا الصلح ما لبث أن نقض في سنة 1683م بإشعال حرب جديدة بين الأخوين، أدت لظهور طرف ثالث مناهض لهما ومثله الداي أحمد شلبي، ما جعل الأخوين يتحدان ضده ويستنجدا بالجزائر في 1685م فقام الداي إبراهيم خوجة مع باي قسنطينة عبد الرحمن من دخول الكاف ثم باجة نحو تونس في 1686م، للقضاء على الفتنة فتم اغتيال علي باي من

طرف الانكشارية، وبويع لمحمد باي على تونس في 10 مارس 1686م، وبتامين داي إبراهيم على باي تونس أفل راجعا نجو الجزائر، ومنح الداي هدايا ثمينة من عند الباي الذي تعهد بدفع ضريبة سنوية وهدايا لرجال الدولة الجزائرية، وكان أهم بند تستند عليه الجزائر في التدخل في الشؤون التونسية.

فكان هذا الالتزام سببا في حرب 1693م بين البلدين، نتيجة عدم دفع محمد باي ما عليه من ضرائب، فاستغل ابن شكر صهره هذه الفرصة واتصل بالداي شعبان (1688-1695م) الذي تعهد له بتقديم كل المخلفات، فتقدم الجيش الجزائري المدعوم بالجيش الطرابلسي في جوان 1694م لينهزم محمد باي في جويلية في معركة حاسمة خذلته فيها الأعراب، ليتحصن بتونس ويفر منها في نوفمبر 1694م متوجها نحو الجنوب، وتم تنصيب ابن شكر مع إعطاء الجزائريين الأمان للمدينة.

دفع ابن شكر خمسمائة ألف قرش كمقابل لدعمه، وفيها مائة ألف كهدية خاصة لداي وأربعمائة ألف لخزينة الاوجاق، وحتى يقوم محمد بن شكر بجمعه صادر أموال الناس وفرض الضرائب على المهن والحرف، فعاد الداي شعبان في 17 جانفي 1695م للجزائر معبأ بالهدايا والمال، إلا أن محمد باي عاد لتونس في ماي من نفس السنة، وفر ابن شكر نحو المغرب الأقصى، ليقوم محمد باي بإرسال وفد للجزائر بقيادة إمام الزيتونة الغيث البكري والمفتي محمد فتاتة وكاتب الديوان محمد خوجة، ولكن رفض الداي شعبان شروط الوفد، في حين قبلها خلفه الداي أحمد العقبي (1695-1398م) فأبرم الصلح بينهما، على ما كان للجزائر سابقا من ضريبة والهدايا، لتجنح العلاقات للسلم إلى غاية مراد الثالث (1699-1702م).

الذي عرف بنزواته المتطرفة من ظلم وغطرسة فبعد مبايعته بايا عقد جلسة طارئة للديوان لإعلان الحرب ضد الجزائر للحد من التدخل الداخلي في شؤون تونس وأيضا لحقده الدفين على أتراك الجزائر، ليعمق عداءهالصريح مع الجزائر باتفاقه مع السلطان المغربي إسماعيل في 1700م بإيجاد عملية عسكرية منسقة بينهما على الشرق والغرب، وتمكن باي مراد من هزم باي قسنطينة إلا أنه انهزم في معركة جوامع العلماء في 30 أكتوبر ، فلم ينجيه سوى الفرار بفرسه المعروف بسرعته الذي سقط صريعا بعد جهد من تحت سيده بتونس.

وفي 1701م أرسل باي تونس وفدا لتجنيد من أراضي الدولة العثمانية بقيادة الشريف إبراهيم، وتزامن وصوله مع وفد جزائري جمع بينهما السلطان مصطفى الثاني (1664-1702م) وطلب منهما بالعودة بفرمانات لتناسي الأحقاد وإبرام الصلح، لتعود سفن مراد الثالث في جويلية 1701م محملة بألف مجند، ليعيد بها الكرة على الجزائر غير مبالي بأوامر السلطان العثماني في ماي 1702 حاول مرة أخرى.

ولكن هذه المرة يتم قتله من طرف كاهية جنده إبراهيم الشريف في جوان 1702م بباجة، واعتلى الحكم واتفق مع الجزائر على دفع ضريبة سنوية وإرسال الهدايا، وفي 1705 حنث بوعده فطالبه الداي مصطفى بما عليه (150 ألف ريال وتقديم 1000جمل) فرفض، فاندلعت الحرب في معركة بالكاف أسر فيها إبراهيم الشريف في 1705/7/11م وتم تنصيب كاهيته حسين بن علي في ديوان تونس بايا جديدا.

وبذلك ارتبطت العلاقات بين البلدين حول سير الأحداث بتونس، مع اعتبار أن الجزائر هي الراعي والحامي لحاكم تونس في كل مرة، وهذا ما تدعمه الجزائر في علاقاتها مع الأسرة الحسينية التي تنطلق في تونس بنهاية إبراهيم الشريف في 1705م.

المحاضرة الخامسة: مع الأسرة الحسينية (1705-1830م) -1-

بعد التدخل الجزائري في القضاء على فتنة إبراهيم الشريف تم تنصيب حسين بن علي تركي كباي على تونس، لذا نجد العلاقات بين أفراد هذه الأسرة والجزائر مرت بعدة أطوار في معظمها كانت الجزائر هي التي تفرض منطقها بفعل القوة، مع استغلال الخلاف العائلي حول منصب الباي، إلا أنه في المرحلة الثانية فقد عملت تونس على تخليص رقبتها من تلك الالتزامات التي رأى فيها بايات تونس نوع من الإذلال لشخصهم واحتقار لمكانتهم، ويهز عرشهم وكيانهم، وتمكنوا من التخلص منها، لذا فقد ساد العلاقات فترات حرب وأخرى سلم وبعضها ترقب وحذر وهذا ما نعمد على إيجازه في هذا الملخص:

الأسرة الحسينية:

أسسها حسين بن علي تركي وهو من ابن علج يوناني انخرط في صفوف الانكشارية في عهد الأسرة المرادية، وقد امتاز بحسن السيرة مع رجاحة العقل، وقد تقلد عدة مناصب إدارية

كمنصب خزندار، كاهية، ومشرف على دار الجلد ثم أغا الصبايحية الترك، ليتولى البايوية بتونس، ويؤسس لأسرة توارثت حكم تونس من 1705 إلى غاية منتصف القرن 20م.

وباعتلاء حسين بن علي حكم تونس، كان الجيش الجزائري لايزال يرابط بالأراضي التونسية، وهو الأمر الذي لم يتقبله الباي الجديد مما أوجد صراع بينه وبين قائد المحلة الجزائرية الداي مصطفى، انتهى بصدام تصدت فيه تونس للجيش الجزائري الذي انهزم أمام أسوار ها، فعاد الداي مصطفي للجزائر في سبتمبر 1705 وكله عزيمة بالعودة إليها ولو بعد حين، وإلا أن الباي قام بتقديم هدايا لداي الجزائر وحكومته، ما جعل العلاقات بين البلدين تهدأ وتجنح إلى السلم، بدون أن ترقى إلى التعاون.

ورغم ذلك فدايات الجزائر لن يفوتوا أي فرصة سانحة للعودة إليها، وجاءت الفرصة بعد أن ظهر الصراع في البيت الحسيني بين باي حسين بن علي وابن أخيه علي باشا الذي أزيح عن ولاية العهد للبايوية في 1728م، الأمر الذي فتح باب التدخل الخارجي من جديد علي يد الجزائر، التي التجأ إليها علي باشا طلبا للدعم، فسعى باي تونس جاهدا لقتل ابن أخيه في الجزائر لكن بدون جدوى، فاضطر لشراء بقائه في الحكم بالمال بدفعه لدايات الجزائر مبلغ سنوي مقدر بـ 10 ألاف ريال مقابل إبقاء ابن أخيه في السجن الجزائري .

ولكن في عهد الداي إبراهيم (1732-1745م) توقف في دفعها سنة 1735م، مع تقديم شحنة حبوب لعدوة الجزائر اللدود اسبانيا، فكان ذلك سببا في إعادة تنصيب علي باشا حاكما على تونس وقتل حسين بن علي، بعد معركة سمنجة في 1735/9/4م وفرا ابنا الباي المقتول محمد وعلي للجزائر ليكونا بدورهما ورقة ضغط على علي باشا، وتعود الحملة محملة بالمال جزيل كتعويض عن الحرب مع فرض إتاوة سنوية مقدرة بـ 50 ألف قرش عثماني، لتعود العلاقات إلى صفائها رغم تكدرها أحيانا بسبب سياسة علي باشا المتميزة بالتذبذب خصوصا في دفع ما عليه من الالتزامات.

وهذا ما كان في عهد محمد باكير (1748-1754م) الذي ساءت علاقاته فيها مع باي تونس، وأدت إلى توجيه حملة في 1746م لتنصيب أبناء حسين بن علي ولكنها انكسرت في الكاف، ليعود علي باشا ويدفع ما عليه لتتحسن العلاقات من جديد، ونتيجة لتماطل باي تونس في دفع ما عليه، مع تطاوله في محاولة التدخل في الشأن الداخلي للجزائر بتحريض

خزناجي الداي، الذي سيروح ضحية القتل مع الداي في سبتمبر 1754م، ويتم تولية الداي النقسيس (54-1766م).

هذا الأخير الذي سيتدخل كثيرا في الشؤون الداخلية التونسية، لإحساسه أن بايها أصبح على درجة من القوة، كما انتقلت قبيلة حدودية جزائرية إلى تونس، فطالبتها الجزائر بدفع مبلغ كبير الذي رفضه باي تونس، فكان إعلان عن بداية الحرب من جديد، فقام علي باي بتحصين الكاف وأمر برحيل جميع سكان الذين يعيشون على خط مرور المحلة الجزائرية كباجة وغيرها، وبالجزائر استعد الأخوان محمد وعلي ابنا حسين بن علي، وتوجها مع الحملة الجزائرية بقيادة الباي حسن زرق عينو، ودخلت تلك القوات مدينة تونس في 1756/8/31م بعد محاصرتها، ونصب الأخوان وتم قتل علي باشا وابنه، وفرضت الجزائر على الأخوين عدة شروط منها:

- دفع مبالغ مالية سنوية.
- تحديد الجيش.
- التبعية للجزائر.
- دفع تكاليف الحرب.
- عدم إقامة الحصون.
- تنكيس العلم والرايات التونسية.
- تقديم هدايا للقائد الحملة حسن زرق عينو.

وبعد كل تلك الشروط المخزية للجانب التونسي، عاد قائد الحملة حسن زرق عينو محمل بمال جزيل، فأخذ مال علي باشا وأبناؤه وأثرياء تونس كغنيمة حرب، و قدر ما حمله للجزائر بـ 9 مليون فرنك، وألفين من الأسرى المسيحيين. وبعبارة أخرى أصبحت تونس بذلك منطقة تابعة مباشرة لدايات الجزائر، نتيجة تكبيلها بتلك الشروط، ومنه ما التطورات التي نتجت عن هذا الوضع في العلاقات السياسية بين البلدين؟

تتبع

المحاضرة السادسة: مع الأسرة الحسينية (1705-1830م) -2-

بعد أن اطمأن دايات الجزائر على استتباب الأمن بتونس وإنها وافقت على شروطها، على اثر حملتهم في 1756م، تركوها لأهلها وعادوا إلى الجزائر محملين ومثقلين بالمال الجزيل كما قلنا، ففي عهد كل من الباي محمد (1756-1759م) والباي علي (1759-1782م) وابنه حمودة باشا فمن سنة 1756 إلى غاية 1806م رضخت تونس للجزائر، وظلت وفية لها وارتبط موقفها السياسي بموقف الجزائر.

فعرفت تونس في هذه الفترة السلمية رخاء اقتصاديا وبناءا لقوتها العسكرية البرية والبحرية، كما عملت على عدم رفض أي طلب للجزائر مهما كان، فاستغلت الجزائر ذلك بإرسال الوفود والرسل التي كان على الباي إكرامها ومنحها العطايا والمال، حتى وصلت الدرجة لإرسال حيوانات جزائرية تباع في أسواق تونسية بالسعر الجزائري، وقبل التجارة التونسية وفي حالة نفوق إحداها تعوض ماليا.

ومن جانب آخر عمل باي حمودة باشا (1782-1814م) على استكمال قوته دون إشعار الجزائريين بكل سرية وهدوء، رغم توتر العلاقات مرتين في سنة 1783م بسبب قبيلة تونسية انتقلت للجزائر، فدفع عنها 25 ألف ريال في جوان 1784م تجنبا للصدام، وفي 1787م حدث العكس، فاستغل حمودة باشا الظروف الداخلية للجزائر والدولية لتحسين تونس دفاعيا برفع عدد الجند وإقامة التحصينات وشراء قطع سفن وعتاد حربي والاعتماد على الخبرة الفرنسية، بدون إثارة للشكوك حوله.

فعندما أحس باستكمال قوته ضرب تلك الشروط السابقة التي فرضت على عمه وأبيه سنة 1756م عرض الحائط ، وكانت القطرة التي أفاضت الكأس بين البلدين إقدام حمودة باشا على تأديب رعايا جزائريين امتهنوا تجارة القوافل، وبسبب سوء تصرفاتهم أدبوا، فاعتبرت الجزائر ذلك إهانة لها فأعلنت الحرب على الفور، فأمر باي تونس الجزائريين بالرحيل عنها في 1806م، لتوجه الجزائر بحملة بحرية على حلق الواد لإرهابه، قام على إثرها باي تونس بتوجه حملة نحو قسنطينة في جانفي 1807م.

بتعداد خمسين ألف جندي بقيادة سليمان كاهية، الذي هزم باي قسنطينة حسن باي وتوجه لحصار دار بايلكه التي صمدت أمامه حتى جاءها المدد من الجزائر، وانتهت بهزيمة الجيش التونسي الذي لحق به الجيش الجزائري، ليصطدم بحملة ثانية من تونس في الكاف

أعدها حمودة باشا تحت قيادة الوزير الأكبر صاحب الطابع يوسف، الذي جلد وصبر فكان النصر حليفه في واقعة شلاطة على واد السراط في 1807/7/3م بسبب تخاذل القبائل الجزائرية من اوراس وحنانشة وفرجيوة، فخلصت تونس رقبتها من يد الجزائريين، وأصبحت كالند لهم.

وأمام هذا الوضع الصعب وجد الداي أحمد باشا (1805–1808م) نفسه مضطرا ومكرها لإقامة الصلح مع تونس في 8 سبتمبر 1818م، غير أن الجند قتلوه لاتهامه بالخيانة، وتم تولية الحاج علي باشا (1809–1815م) لتعود حالة الحرب بين الطرفين بإرسال حملات بحرية وبرية، كحملة رايس حميدوا البحرية على موانئ تونس في ماي 1811م وانتصر بساحل سوسة على الأسطول التونسي بقيادة الرايس محمد المورالي.

لتظل العلاقات مقطوعة بسبب إصرار الجزائر على مطالبها السابقة، أمام تحفظ تونس وتصلبها في موقفها الذي صار ثابتا بعد حمودة باشا، خصوصا في عهد محمود باي (1814–1824م)، فأدى ذلك لأزمة عميقة استنفذت قوة وموارد الايالتين، نتيجة توتر العلاقات بين الطرفين إلى غاية الداي علي خوجة (1817–1818م) الذي أرسل وكيل الحرج لعقد صلح مع تونس في 1817/10/6م ووافق عليه محمود باي وفيه:

– دفع غزاة البحر الجزائريون في الموانئ التونسية أثمان المؤن نقدا.

– عدم الاعتداء على السفن التونسية.

– إخراج مقر وكيل الجزائر إلى خارج مدينة تونس وعليه التأدب في مخاطبته أو مراسلته .

– تثبيت الحدود عما هي عليه.

ورغم هذا الصلح فعند تولية الداي حسين (1818–1830م) حاول إعادة ما كان للجزائر في تونس من نفوذ، بإرساله حملة برية في مارس 1820م التي رامت دخول الأراضي التونسية وفي جوان 1820م حاول الداي مصادرة سفينة تجارية تونسية ولكنها نجت من ذلك،وفي جويلية 1820م تم اسر ثلاثة سفن تجارية تونسية أخذت حمولتها لعنابة، وفي ظل هذا الوضع تدخل السلطان العثماني لفك النزاع الذي طال أمده، بإرسال مبعوث للايالتين في جانفي 1821م وانتهى مسعاه بعقد صلح دائم بين الطرفين في 14 مارس 1821م مما أدى إلى فرحة الشعبين.

ولكن على اثر الخلاف الجزائري الفرنسي ما بين 1827–1830م فان باي تونس حسين باي (1824–1835م) كان موقفه سلبيا من الجزائر ، بفتح أرضه للدعاية الفرنسية، وتزويدها بالمترجمين، كما جعل موانئه في خدمة الحملة ، ومنع مرور الدعم للجزائر القادم من الدولة العثمانية على أراضيه، بل ذهب إلى ابعد من ذلك فقد أرسل وفدا لتهنئة على اثر سقوط مدينة الجزائر، مع محاولته شراء الشرق الجزائري وحكم الغرب تحت المظلة الفرنسية، وهذا تصرف فرد لا تصرف شعب.

ومما تقدم عرضه نترك الاستنتاجات يخلص إليها الطالب بنفسه في طبيعة العلاقات.